٩٩/٨/٤/٥٦

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت ـ لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٤

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢٤١١
التاريخ ٢٠١٤/٢/١٥

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

نقدُ البعثة الفرنسيّة إلى الجزائر في أربعينات القرنِ الماضي (★)

د. مَروان بحيري

إن تجربة الاستعمار تجربة مألوفة. إذ إن المستعمَر، إمَّا أن يُباد، في العادة، أو أن يُتمثَّل ويُمتص، أو أن يعزل؛ ومع هذا يظل المستعمِر، ورغم الثقة بنفسه من تأكيده قوته، يشعر بالحاجة الملحة إلى إيجاد تبرير لأعماله. من هنا منشأ ما يُدعى بالرسالة التمدينية للامبريالية. لكن هذه الرسالة، هي في الواقع الفعلي، أبعد عن أن تكون «سبباً»، للتوسُّع الامبريالي، وأقرب إلى أن تكون تبريراً، أخلاقياً ـ أو عقلانياً ـ لعمليةٍ أصبحت قيد التنفيذ والإجراء. حتى **هوارس وفيرجيل** ـ وهما الشاعران اللذان تغنَّيا بأمجاد الامبراطورية (imperium)، واكتشفا لها رسالة إلهية ملقاة على كاهل روما، هي توحيد العالم وبسط السلام على ربوعه بالقوة ـ لم يفعلا هذا، إلاَّ بعد أن أنجزت فيالق روما عملها وأتـمّته.

وهذا يصدق أيضاً على العصر الحديث. فما إن يشتد عود الاستعمار ويتقوَّى، حتى يبدأ التفكير بصياغة «الرسالة التمدينية» (Mission civilisatrice). ومع مرور الزمن، أصبح هذا أنصع جانب من جوانب صورة تزداد قتامة واكتئاباً؛ جاء شعراء من أمثال **كيلنج** يتغنون بالعبء الملقى على كاهل الرجل الأبيض تجاه الآخر، الذي «نصفه شيطان، ونصفه طفل»، ذي البشرة السمراء الملونة[1]. وهكذا، أمكن للاستعمار أن يفخر بمنجزات مشكوك فيها. وأصبح يرى أن العالم الذي كان بربرياً، أمكن اصلاحه بهمة من نصبَّوا أنفسهم كلاب حراسة للمدنية.

ذكر ثورنتون أن الامبريالية الثقافية عرِّفت بأنها «العملية التي تصف نفوذ ثقافة في ثقافة أخرى وتَخلُّلَها

(★) مجلة «الأبحاث» Al-Abhath، (فصلية، تصدر في الجامعة الأميركية في بيروت) ـ مجلد ٢٦، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

بأفكارها وعاداتها وغاياتها . . . أمَّا المدنية، فيمكن تعريفها بأنها آلية عمل الثقافة، أو جانب من جوانب الثقافة يشرع في الأداء حين تريد إنجاز أمرٍ ما »[٢] . وأثناء فترة عودة البوربون إلى العرش الفرنسي، وما تلاها من ملكية تموز (يوليو) (١٨١٥ - ١٨٤٨)، اصطنع الفرنسيون رسالة مجيدة لأوروبا عموماً، ولوطنهم هم على وجه الخصوص، هي تمدين الأفارقة والآسيويين. ولقد كان تشديدهم وتركيزهم في معظمه على الدوافع غير المادية، مؤكدين في الوقت ذاته أمور الشرف، والواجب، والتسامي، كأسباب لتوسعهم الامبريالي. ويمكن للمرء طبعاً، أن يتساءل هل يمكن لثقافة ما أن تحكم على الثقافات الأخرى بأنها مؤهلة للتمدين والتثقيف، دون أن تشعر هي في الوقت ذاته بالاحتقار والاستهانة بتلك الثقافات؟ أغلب الظن أن الجواب بالنفي. لقد اعتُبر الآسيويون والافريقيون، على أقل القليل، أنهم « جماعات ضابطة يعيِّر الاوروبيون إجراءاتهم ومعايير منجزاتهم بهم »[٣] .

بل إن مما يدل على التبجُّح والترفُّع واقعة أن الجماعات الأكاديمية والفكرية والدينية، كانت تتداول في مناظراتها بجد واحتداد واضحين، مسألة ما إذا كان غير الاوروبيين، والأفارقة على وجه الخصوص، قابلين للتمدين أصلاً. وقد دُعي العلم الإلّه، الذي تم تنصيبه قبل قليل، لكي يدلي بحكمه السامي[٤] .

كانت الرسالة التمدينية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، خاضعة إلى حد كبير للاعتبارات الدينية الظاهرية: نشر المسيحية، ودفع الاسلام إلى الوراء، والصراع بين اللاَّتين الكاثوليك والانجلو ساكسون البروتستانت. لكن الرسالة اتخذت في بعض الأحوال جانباً أقرب إلى الأمور الدنيوية. كما في حالة السان سيمونيين، رغم ما يمكن الاحتجاج به من أن أتباع سان سيمون أقاموا ديانة جديدة. ومهما يكن الأمر، فسنبحث كلا الاتجاهين، الديني، وشبه الدنيوي.

في سنة ١٨٣٠ وصف **كلير مون ـ تونّير**، وزير حرب شارل العاشر، لمليكه غزو الجزائر بقوله « إنه عمل عظيم أنعمتْ به العناية على فرنسا، لتمدين العرب وجعلهم مسيحيين »[٥] .

وشبيه بهذا، ما صدر في كتيِّب نشر سنة (١٨٤٦) بعنوان أم م. (AMM) تيير وبارّو: **الجزائر، أثرها على مصير فرنسا وأوروبا**. ولقد لاحظ هـ. **لامارش** أن « هدفنا من الغزو ـ وهو هدف لا داعي لستره عن الأوروبيين ولا عن العرب ـ هو الدعوة إلى المدنية المسيحية في افريقيا »[٦] . وعبَّر م. **روي** عن نزعة مماثلة، إذ رأى استعمار الجزائر أنه « بسط القانون ومنافع المدنية على السكان الهمجيين: وأقرب أسلوب عقلي لهذا، هو أن يتم عن طريق الاستعمار المسيحي والمدنية الدينية »[٧] .

. (Celui d'une colonisation chretienne et de la civilisation par la religion)

وكان الدعاة والمنظرون العقائديون لهذه «الرسالة»، يميلون عموماً إلى استعمال لفظيْ المدنية والاستعمار كأنهما مترادفان يمكن تعريف أحدهما بالآخر[٨].

ولا شك، أنه كان ثمة من ينظر إلى رسالة التمدين بمنظار أقرب إلى الدنيوية العلمانية، كبسط القانون الفرنسي، والمؤسسات واللغة والمهارات الفنية الفرنسية، واستثمار رؤوس الأموال - أي يعتبرونها، بكلمة مختصرة، تحديثاً. وهذا يصدق خصوصاً على السان سيمونيين والعصريين الآخرين المؤمنين بالحداثة: وقد أصبحت أفكارهم عن الجزائر هدفاً لسخرية پلانا دي لافاي اللاذعة[٩]. ولا يدهشنا أن نجد حتى الموقف الشعبي من الجزائر - وقد كان انتقائياً ملفقاً - يعكس عنصراً من عناصر الرسالة: وكمثال عليه نذكر ما نجده في العنوان المطوَّل لكتيِّب **أ. فرومنتال:**

Essai sur la pacification, la colonisation, la civilisation, la sécurité, la prospérité, la force et la gloire de l'Algérie.

بحث في تهدئة الجزائر واستعمارها وتمدينها وأمنها وازدهارها وقوتها ومجدها. (الذي نشر في نانسي سنة ١٨٣٧).

ولقد كان مفهوم «الرسالة التمدينية» mission civilisatrice مستخدماً بلفظه هذا، لا من قبل دعاة الاستعمار وحدهم، بل من قبل القلّة من المناهضين للاستعمار أيضاً[١٠]. كما يمكن العثور على صيغة أولية لفكرة «العبء على كاهل الرجل الأبيض» في كتاب **روزيه** «رحلة في مملكة الجزائر»، وفيه نداء لأوروبا وأميركا للمساهمة في عمل إنساني ماجد في افريقيا: «لقد ضحَّى أناس كرماء، نفوسهم مفعمة بمحبة الانسانية، بوجودهم ذاته في سبيل توعية تلك الأمم الهمجية وتوسعة حدود المدنية»[١١].

لكن إدخال المدنية إلى قطرٍ ما، لم يتضمن دائماً أن يصبح المواطن من الأهالي المحليين مستفيداً منها، بل إن الواقع يثبت أنه كان يعتبر أحياناً ضرباً من العوائق المادية، وأولئك الذين كانوا يرون إبادته شرطاً مسبقاً لأيَّة حياة متمدنة في إفريقيا لم يكونوا قلة. ففي مقالة نشرت سنة (١٨٤٦) في إحدى صحف بوردو، نجد التعبير عن هذا المعتقد بلا أسف، وبدون أي وخز ضمير: «ما علينا، لتبرير غزونا إلاَّ أن نقول فقط إننا أدوات للمدنية مسيَّرون بها»[١٢]. ثم يسترسل المؤلف في إيضاح ما في ذهنه ويتعلق بالأهالي الوطنيين في الجزائر، فيقول «إن البدوي هو الهندي الأحمر في افريقيا، ويجب تهيئة نفس المصير الذي آل إليه الهندي الأحمر أثناء عملية استعمار الرواد لأميركا، في عملية استعمار فرنسا للجزائر؛ يجب أن يختفي من على وجه الأرض»[١٣].

★★★

كان پلانا دي لافاي مرافقاً عسكرياً لنابليون بونابارت، وكان خصماً لدوداً للتوسع الاستعماري الفرنسي.

وبعد حرب المائة يوم، رافق نابليون إلى **بليموث** على ظهر السفينة الحربية **بيلوروفون**، واختير لمشاركته منفاه في سانت هيلانة. لكنه فقد هذا الامتياز في اللحظة الأخيرة، حين قررت انجلترا إنقاص عدد مرافقي نابليون إلى منفاه؛ فوجد نفسه، بدلاً من هذا، سجيناً في مالطا لمدة سنة، وقد شطب اسمه من لائحة الضباط في عهد استعادة ملْك البوربون[١٤]. وقد تبيَّن له فشل كل المحاولات التي أجراها لتسوية وضعه وإعادة اعتباره، حتى في عهد ملكية تموز (يوليو)، وكان قد تقدم بالتماس منمَّق **للوي فيليب** سنة (١٨٣٩)[١٥]. ولقد ظل هذا الضابط العاثر الحظ مقتنعاً بأنه كان ضحية المعاملة السيئة، ولم يكتم خيبة أمله بملكيتي البوربون وتموز.

كما تقدم لنا حياة پلانا دي لافاي جوانب طريفة. إذ ربما كان هو وزوجته البافارية، أول بروتستنتيين موحدين في فرنسا[١٦]. وكان معجباً بغاريبالدي، ويراسله بانتظام. يضاف إلى هذا، أنه كان مؤمناً بحرية التبادل التجاري، فاهتم اهتماماً كبيراً بالمسائل الاقتصادية من مثل تطوير السكك الحديدية[١٧]، وانقاص التعرفات الجمركية، والاستعمار، ونشر العقائد المؤمنة بحرية التجارة. وكان من هذه النواحي تلميذاً مخلصاً لـ: ف. باستيات، وهو أحد أوائل الاقتصاديين الفرنسيين الليبراليين الذين عارضوا أيضاً استعمار الجزائر[١٨].

اهتم پلانا دي لافاي بغزو شمال افريقيا والتوسع هناك، اهتماماً اقتصادياً، فوجه دراستين إلى غرفتي البرلمان الفرنسيتين سنة (١٨٣٦)، «**في ضرورة الانسحاب من الجزائر**» و«**ملحق لدواعي التخلي عن الجزائر: مقابل ما يدعو لاستعمارها**»، وهما تعكسان معرفة عميقة بالمشكلة الجزائرية ومهارة في الكتابة الجدلية، رغم أن پلانا دي لافاي ادّعى أنه لا ينتمي إلى أيِّ جانب أو طرف، مضيفاً أن احتجاجاته كانت موضوعية ولا تهدف إلى ترقية وضعه أو وظيفته[١٩].

لم تكن المسألة الجزائرية، في رأيه، إلاَّ «مسألة لا تزيد عن كرامة وطنية في غير محلها، نماها بالأساس بعض الفئات المتطرفة من المعارضين، ثم تناولها بعض الحالمين السياسيين، وأخيراً تبنَّتها بعض المصالح المبطّنة»[٢٠]. فهي، كإحدى الممتلكات، لم تؤدِّ بأية ثروة إلى البلاد، إذ ليس لها، في الواقع العملي أيَّة قيمة تجارية أو زراعية؛ وكانت الحرب فيها هدامة، وتؤلف خطراً حربياً كامناً على الجبهة الوطنية في حال نشوب أية أزمة أوروبية[٢١].

لقد حاول أن يتفهم الدوافع الأساسية للتصرفات الغريبة للبرلمانيين وللصحافة بخصوص «هذه المسألة المقنعة البالغة الأهمية»[٢٢]: وكانت هذه التصرُّفات تتصف بالحذر الشديد، والغموض المتعمد. فتساءل: لماذا لم تستطع الحكومة أن تملك أمرها وتتخلَّى عن هذه المغامرة الهدامة؟[٢٣]، ورأى أن أهم سبب وأكثره خطراً هو المصالح الجديدة التجارية التي نشأت هناك لمرسيليا وللبقاع المجاورة لها، رغم شعوره أن الأهمية التجارية تلك، فيما يخص فرنسا بمجملها، كان مبالغاً فيها كثيراً. بل لقد كانت مقتصرة اقتصاراً شبه كامل على حاجات القوى

المحتلة الفرنسية، ولم تشمل أياً من عرب الجزائر[٢٤].

والتفسير الآخر هو «المصالح الشخصية لأفراد في مراكز مناسبة ملائمة، كانوا يضاربون في الممتلكات الممتازة حديثاً في المستعمرة تحت قناع المخططات الاستعمارية»[٢٥].

وسبب ثالث قدَّمه، وكان خوف الحكومة من مكائد دعاة «الشرعية البوربونية، الذين قد يتمسكون بالتخلّي عن الجزائر كفرصة ذهبية، للّعب على وتر العواطف الوطنية عند الشعب الفرنسي، مسببين رد فعل شعبي ضد نظام حكم ملكية تموز[٢٦]. وقد كانت منطقة مرسيليا إحدى أغنى مناطق المعارضة لأسرة بوربون، ومن هنا كان التمسك الشديد بالاحتلال من قبل حكومة لوي فيليب.

ولا شك أن على النظام أن يأخذ بحسبانه شعبية الحملة الجزائرية لدى الدوائر العسكرية المحترفة: «فلقد أدى احتلال الجزائر إلى ترقيات غير معتادة، وإلى فيض من التوشيحات بالأوسمة، وذكر في الثناءات ونشراتها»[٢٧]. وقد أشار دي لافاي إلى أن «الضباط، من المارشالات إلى صغار الملازمين كانوا جميعاً مؤيدين شرسين للاندفاعية الجزائرية، بل ولتوسعات عسكرية أبعد منها»[٢٨]. وكان يمكن أن يضيف أن الحملات أسبغت أمجاداً وطنية على بعض الجنرالات ذوي الطموح السياسي، أمثال **كلوزيل وبوجو**[٢٩].

لكن أكثر الأسباب أصالة من تلك التي قدمها ذلك المرافق العسكري لنابليون، كانت حجة «**التطهير**» أو «التنفيس»: فالجزائر هي صمام أمان لما يجري في الوطن من خيبات، وحقل يذهب إليه الأكثر عنفاً للتنفيس عن ضيقه. لقد تطرَّق إلى هذا في ورقته الاولى «ضرورة التخلي» باختصار، ثم توسَّع فيه في عمله الثاني «الملحق». وهكذا كتب قائلا:

«لقد نفذ الشعب ثورة تموز، فأيقظت فيه الكثير من الآمال والطموحات... ولقد رأت الحكومة من مصلحتها أن توجههم إلى الجزائر جاعلة منها مجالاً للفرص الجديدة. ثم أصبحت افريقيا كلها نوعاً من المتنفس الذي أراح فرنسا من جزء من ميولها الفاسدة. وفي الوقت ذاته، استيقظت الميول الحربية في المجتمع الفرنسي بعد إغفاءة خمس عشرة سنة، فهددت بدفع البلاد إلى حرب أوروبية أرادت تجنبها بأي ثمن. ولهذا السبب، رحَّبت الحكومة بتوجيه هذه النزعات العسكرية، بأن عرضت على المفرط في التحمس حرباً زائفة أو مصطنعة (Un simulacre de guerre)، .وعلى المفرط في الطموح، فرصة العمل، والاتشاح بالأوسمة، والترفيع في الرتبة. ولا أظن بأن مجلس الوزراء قد رأى في امتلاك الجزائر مزايا أخرى»[٣٠].

ثم حوَّل انتباهه إلى الظروف المحلية في فرنسا، ولفت النظر إلى الفرص العديدة المتاحة للفقراء والعاطلين عن العمل لتنمية الموارد العظيمة في الأرض، التي أهملتها البلاد وتعامت عنها. بل إنه ألمح إلى إمكان وجود رابطة

بين القلائل الاجتماعية، والموارد العاطلة عن الاستغلال؛ وبين العبث والهدر والاستعماريين. واعتقد أنه كان يمكن تجنّب الفورات الخطيرة، أو ربما كانت تصبح أقل عدداً ووتيرة، لو أن المائة وثمانين مليوناً من الفرنكات التي بُدِّدت في حرب الجزائر كانت استُخدمت لتمويل الأعمال الزراعية والشعبية الضخمة، مستخدمة القوة العاطلة عن العمل في فرنسا حينئذ[٣١].

كما تعرضت الحجج التي قدمها العسكريون والمدافعون عنهم في سبيل الاحتفاظ بالجزائر لسهام نقد پلانا دي لافاي، وكان من تلك الحجج أن الاستيلاء الجديد «يشكل مدرسة لفنون الحرب يتدرب بها الجيش؛ وفرصة للاحتفاظ بالروح العسكرية (L'esprit militaire)»[٣٢]. فرأى دي لافاري العكس. إن هذه الروح قد نسفتها التجاوزات والمظالم التي حدثت على صورة الترقيات السريعة التي نالها بعض الضباط، وقلة أخلاق بعض الضباط الآخرين الذين أثروا من التزوير ومن المضاربة بالأراضي. يضاف إلى هذا، أن الثمن الواجب دفعه مقابل هذه المدرسة الخاصة بالحرب، والحفاظ على هذه الحوافز المشبوهة المسماة بالروح العسكرية، لم يكن من السهل على الأمة تحمّله أو دفعه[٣٣]. كما أن مفهوم الاستعمار العسكري لم يكن ليروق له، إذ لم يجد قيمة في «مستعمرة تحت ظل الحراب. يضطر المستعمر فيها إلى حمل الحربة بيد والمحراث بيد أخرى»[٣٤].

وما أمضَّه على وجه الخصوص - ولا غرابة، بالنظر إلى ارتباطه الوثيق المديد بنابليون - هو سلوك بعض شباب الضباط الذين أخذوا يقارنون منجزاتهم التافهة بحملات نابليون العظمى: «إنهم يظنون أنفسهم يخوضون حرباً، وهم ليسوا في واقع الأمر إلاَّ مطاردين لبضعة «**برانس**» بيضاء عبر الصحراء»[٣٥]، كما سَخِر من النشرات المتبجحة الخيالية التي تعلن بألفاظ طنانة، عن الانتصارات تلو الانتصارات وتتلقفها الصحافة فتنشرها[٣٦]:

«ولكن من المؤلم بالنسبة لجنود نابليون القدامى أن يروا الحرارة القتالية تضيع في اشتباكات حمقاء ضد البدو، من تلك التي كانت الأحاديث المضخمة عنها تجعلنا أضحوكة الوسط العسكري في أوروبا»[٣٧].

وأخيراً لم تغب عن أنظارهم النتائج الاستراتيجية للتورُّط العسكري الكبير في حرب مستمرة في الجزائر. ففي حالة نشوب حرب في أوروبا، ستكون هذه المستعمرة عائقاً خطيراً. ويصبح من الضروري إخلاء المستعمرة بسرعة، أو المغامرة بتعريض القوات المحتلة لخطر التحطيم المؤكد: كما أن فرنسا التي تفتقر إلى القوة البحرية الكافية لإمداد قواتها في افريقيا، ستشعر بالحاجة إلى تلك القوات للدفاع عن الوطن الأم[٣٨].

ودون أن يتعرض للتفصيل والتعمُّق في المضامين، تطرق پلانا دي لافاي إلى المفارقة التي يتعرَّض لها المثاليون التقدميون الذين تواجههم مشكلة التوسع الاستعماري، تساءل: «كيف يستطيع الذين نصبوا أنفسهم

للدفاع عن مبادىء الحرية، والمساواة، واستقلال الأمم، أن يدعوا، في الوقت ذاته، لتأسيس مستعمرة لا يمكن إنجازها إلاَّ عن طريق العنف؟»[٣٩]. وأكد أيضاً على رفض الجزائريين للمدنية الفرنسية: «إن الأهالي الوطنيين ليسوا بحاجة لمدنيتنا التي يرفضونها على أسس دينية وسياسية (avec mépris par principe religieux et politique)؛ وهم يعرفون تمام المعرفة أن حياتهم الشاقة ووعيهم، حتى فقرهم، هي أهم ضمانات لاستقلالهم»[٤٠]. وكان مقتنعاً بهذا الخصوص أن مائة وثلاثين عاماً من التسلُّط الفرنسي لم تستطع أن تزيل أو تُحتُّ الثقافة الوطنية.

لكن پلانا دي لافاي، لم يكتف بتقديم الأجوبة التي تفسر السلوك الغريب للحكومة، وبكشف أصحاب المصالح الخاصة الذين وجدوا حقلاً يانعاً لنشاطاتهم في المستعمرة الجديدة، بل انتقد أيضاً الدعاة والمنظرين وحججهم التي قدموها لتبرير الاحتفاظ بالمستعمرة، وبالتوسع الأبعد في شمال افريقيا باسم الرسالة التمدينية لفرنسا (mission civilisatrice) ذاتها.

وكان السان سيمونيون ـ ومنهم ميشيل شيفالييه وايفانتين ـ شأنهم شأن أتباع فورييه، دعاة متحمسين للاستعمار المرتبط بالتجارب الاجتماعية على أراضٍ جديدة، وهم المؤمنون قبلا بمدنية عالمية شاملة يمكن الوصول إليها عن طريق نشاطات شبه تبشيرية[٤١]. وقد وصفت صحيفتهم «**العالم**» (Le globe) الاستعمار، بأنه «تدخل المدنية في الشعوب البربرية» (L'intervention de la civilisation chez les peuples barbares)[٤٢]؛ وقد سلَّط پلانا دي لافاي سهام سخريته اللاذعة على بعض أقرب أفكارهم إلى نفوسهم، التوحيد السامي بين «الشرق» و«الغرب» والرسالة التمدينية[٤٣]. إذ اعتقد أن ليس لدى فرنسا دواعي تجعلها «تتحمَّل تكاليف الزفاف»، في اتحاد اعتبره غيبياً صوفياً، لا يدري لماذا اختيرت له، بين كل الأمكنة، الجزائر بالذات[٤٤]. ورغم أنه كان أميل إلى التنويه بالنزعة الانسانية لتلك الدوائر التقدمية، ومحاولتها تصدير المدنية والوعي إلى الأفارقة، فقد كان يشعر أن فرنسا تفتقر إلى الشروط المادية، وربما الروحية، التي تؤهلها للقيام بهذه المهمة المجيدة. كتب يقول: «قبل أن نفكر بتمدين افريقيا وإعمارها، علينا أن نبدأ بتمدين فرنسا ـ فهي بحاجة أكثر بكثير مما نظن في العادة، فلنبدأ باستزراع الأراضي الشاسعة غير المستصلحة التي هي وصمة في جبين القرن [التاسع عشر]، والتي قد يدهش جيراننا لمعرفتهم أنها تبلغ ثُمْن الأرض الفرنسية كلها»[٤٥]. وبمعارضته للحجة القائلة أن فرنسا غنية بما يكفيها لتحمل أي ثمن في سبيل المجد، قال متعجباً: «هذه الفرنسا القوية الغنية، لا تتحمَّل حتى تكاليف الاحتفاظ بشبكة مواصلاتها»[٤٦].

وكان فوق هذا، يعتقد أن الثقافة والمدنية الفرنسيتين مقصورتان على أقلية ضئيلة، «والكتلة الجماهيرية الكبرى غارقة في الجهل والضلالة»[٤٧]. ثم أشار إلى الفظائع المشينة التي اقترفها الفرنسيون في منطقة تلمسان من

الجزائر؛ وتساءل « تُرى مع أيِّ جانب كانت المدنية؟ ومَن كان البرابرة؟ »[٤٨]. الواضح إذن، أن الفـرنسيين لم يكونوا جميعاً أبناء روحيين لمونتين وڤولتير وروسو ـ خصوصاً في مجال الاستعمار. ورغم هذا، فقد كان الفرنسيون، حين يواجهون ثقافة الآخريـن، مرغمين بـأن ينقـادوا لإغـراء اعتبـار أنفسهـم حـراس المدنيـة الخصوصيين.

ورغم أن أفكار پلانا دي لافاي وانتقاداته للمغامرة الفرنسية في الجزائر، كانت ذات أثرٍ ضئيل ـ إن لم يكن منعدماً ـ في الرأي العام الفرنسي وفي مراكز القوة، فلا بد من الاعتراف بأنه كان داعية شجاعاً، لم ير في تلك « الرسالة » إلاَّ تبجُّحاً مشيناً لا يليق بوطنه ولا بعصره. وكان أبعد من أن ينساق مع ما يدعى العنصر الإنساني للمصلحة الاستعمارية، بل رآها على حقيقتها: العنف في حالته الطبيعية. وهو من هذا الجانب، يُعتبر مبشراً مبكراً ـ وإن يكن ألين عريكة ـ **بفرانس فانون** مؤلف « معذبو الأرض »، كما يُعتبر واحداً من أكثر المحللين تفهُّماً للاستعمار في زماننا[٤٩].

الحواشي

(١) من قصيدة روديارد كبلنج « **عبء الرجل الأبيض** » (١٨٩٩).

(٢) أ. ب. ثورنتون، « **عقائد الامبريالية** » ـ (نيويورك ١٩٦٥)، (ص ١٨٧).

(٣) فيليب د. كورتن، « **صورة افريقيا** » ـ (مطبعة جامعة وسكسن ١٩٦٤)، (ص ٢٤٥).

(٤) ساهم في هذه المداولات من قبل بلومنباخ ولورنس ولامارك، وعلى وجه الخصوص جورج كوڤيه. انظر المصدر السابق، (ص ص ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٥) ج. ب. بيوليه، « **الرسالة الكاثوليكية الفرنسية في القرن التاسع عشر** » ـ (باريس: ارمان كولان ١٩٠٢) ـ المجلد ٥ (ص ١١).

(٦) هـ. لامارش، « **أ. م. م. ثيير وبارو...** » ـ (باريس: بولان، ١٨٤٦)، (ص ٣٨).

(٧) م. روي، « **صور من تاريخ الجزائر** » (ليموج ١٨٤٣)، (ص ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٨) صحيفة « العالم » Le Globe، ١٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٣١، « **عموميات السياسة الجزائرية** »؛ **وج. ب. فلاندان، « مملكة الجزائر، يمكن استعمارها؟ »** ـ (باريس: فيريه، ١٩٣٣)، (ص ١٢).

(٩) ليو لامارك، « **الاستعمار، والسكك الحديدية والأقنية في الجزائر** » ـ (باريس: ١٨٤١)، (الصفحات ٤ و٥ من المقدمة).

(١٠) ارمان كاريل، « **الأعمال السياسية والأدبية لأرمان كاريل** » ـ تحرير م. ليترى (باريس: شاميرو، ١٨٥٧)، المجلد الرابع، (ص ٤٠١)، وقد كان كاريل داعية متحمساً للاستعمار. أمَّا عن الإفادات المضادة للاستعمار، فانظر **أ. دي جاسبارين في « فرنسا، وهل يجب عليها الاحتفاظ بالجزائر »** ـ (باريس: ١٨٣٥)، (ص ٣٧). وقد استعملت تعابير أخرى بديلة لتعبير « الرسالة التمـدينيـة »، مـن مثـل: « العمـل التمـديني » (œuvre civilisatrice) و« الغـزو التمـديني » (Conquête civilisatrice). وكانت شائعة. انظر كتاب ج. ر. دي فلاسّون « **حل مسألة المشرق** » ـ (باريس: دنيتو، ١٨٤٠)، (ص ٣٠).

الحواشي

(١) حول التاريخ العام للاستشراق التقليدي، وخاصة ما تعلّق منه بالعروبة والاسلام حتى العام ١٩٦٢ . هناك عدد كبير من المراجع نخص بالذكر منها :

ف . ف . بارتولد « **اكتشاف آسيا ، تاريخ الاستشراق في اوروبا وروسيا** » ، الترجمة الفرنسية ، باريس ، ١٩٤٧

- **V. V. Barthold «La decouverte de l'Asie, Histoire de l'orientalisme en Europe et en Russie»**

ـ لا نعثر على مادة استشراق في انسيكلوبيديا الاسلام (Encyclopedie de l'Islam), ولا في الانسيكلوبيديا بريتانيكا (Encyclopedia Britannica). في الانسيكلوبيديا السوفياتية : مادة «Orientalistika» ـ موسكو، ١٩٥١ ، المجلد التاسع (ص ١٩٣ ـ ٢٠٢) ، جيوفاني فاكا . «Orientalisme» في الانسيكلوبيديا الايطالية للعلم والادب والفن » ـ روما ، ١٩٣٥ ، المجلد ٢٥ ، (ص ٥٣٧) : (Encyclopedia italiana di scienze. lettre ed arti.)

● ليفي ديلا ڤيدا ، « **حول الدراسات العربية في ايطاليا** » مجلة نيوفا انطولوجيا ، عدد كانون الاول ١٩١٢ (ص ١ ـ ١٠)

- **G. Levi Della Vida. «Pergli studi arabi. in Italia», Nuova Antologia.**

● أ ، بوزاني ، « **الدراسات الاسلامية في ايطاليا في القرنين التاسع عشر والعشرين** » مجلة الشرق والغرب » العدد ٨ ، ١٩٥٧ ؛ (ص ١٤٥ ـ ١٥٥) ، و « يومية المجمع التاريخي الباكستاني » العدد ٥ ، ١٩٥٧ ؛ (ص ١٨٥ ـ ١٩٩) .

- **A. Bausani. «Islamic studies in Italy in the XIX - XX th centuries».** East and west. VIII. 1957. 145 - 155. «Journal of Pakistani Historical society». V. 1957. 158 - 199.

● ز . م . هولت ، « **أصول الدراسات العربية في انكلترا** » الكلية ـ الخرطوم ، ١٩٥٥ ، العدد الاول ؛ (ص ٢٠ ـ ٢٧) .

- **Z. M. Holt. «the Origin of Arabie studies in England»**

● أ . ج . اربري ، « **مقالات شرقية** » ـ لندن ، ١٩٦٠

- A. J. Arberry. «Oriental Essays». Londres,. 1960.

● م . هورتن ، « **مشكلة المستشرقين** »

- M. Horten. «Die probleme der Orientalistik». Beittrâge zur kennits des orient. XIII. 1916. 143 - 161.

● ج . جرمانوس ، « **الاستشراق المجري ، ماضيه وحاضره** » ـ مجلة الحضارة الهند واسيوية العدد ٦ ، ١٩٥٧ ؛ (ص ٢٩١ - ٢٩٨) .

- G. Germanus. «Hungarian Orientalism. - Past and present» Indo - Asian Culture. VI. 1957. 291 - 298.

● ل . بوڤا ، « **المجريون والدراسات الاسلامية** » ، مجلة العالم الاسلامي ـ المجلد الأول ١٩٠٧ ، العدد ٣ ؛ (ص ٣٠٥ ـ ٣٢٤) .

- L. Bouvat. «Les Hongrois et les Etudes musulmanes». Revue du monde musulman. I, 1907. N3. 305-324.

● نجيب العقيقي ، **المستشرقون** » ـ القاهرة ، ١٩٤٧ .

● يوسف أبو داغر ، « **دليل الأعارب إلى علم الكتب وفن المكاتب** » ـ بيروت ، ١٩٤٧ : الكتب الأجنبية ، (ص ١٥٠ ـ ١٦٠) . العربية ، (ص ١٦١ ـ ١٦٧) . « فهارس المكتبة العربية في الخافقين » ـ بيروت ، ١٩٤٧ ؛ (ص ١٠٥ ـ ١١٢) . « مصادر الدراسة الأدبية » المجلد الثاني ، ١٨٠٠ ـ ١٩٥٥ ، بيروت ، ١٩٥٥ ؛ (٧٧١ ـ ٧٨٧) .

● ج . فويك ، « **الدراسات العربية في أوروبا** » ـ لايبزغ ، ١٩٥٥ .

- J. Fueck. «Die arabischen studien in Europa» - Leipzig. 1955.

. . . إلخ .

(٢) انظر مادة **Orientaliste** في موسوعة لاروس الكبرى ، باريس ، ١٩٦٣ .

Grand Larousse encyclopedique. Paris. 1963. VII. (1003 - 1004).

(٣) والمقصود هنا كتاب الاستاذ البرليني الشهير :

Paideia. Die Formung des griechischen Menschen (I. Berlin - Leipzig. 1934).

الذي يلخصه م. **غويدي**، على هذا النحو: « ليس بوسع أي توسيع للأفق التاريخي أن يغير في كون تاريخنا يبدأ مع الاغريق (. . .)، إن هذا التاريخ لا يسعه، بالطبع، أن يتناول الكرة الأرضية بأسرها مسرحاً له، بل هو يقتصر فقط على شعوب « المحورية الهلينية » (. . .)، إذ إن هذه الشعوب هي التي أخذت عن الاغريق المبدأ الواعي الذي يتعلّق بالثقافة الحقيقية (. . .)، وليس من العسير البتة أن نستخلص النتائج العملية التي تترتب على هذه الصيغة النظرية: ونعني القيمة المطلقة والمركزية التي تتمتع بها العصور القديمة بوصفها معيناً أبدياً ووحيداً للمبدأ المكوِّن لثقافتنا، ومن ثم بوصفها قوة تشكيل وتثقيف لمذهب انساني كلي »، (م. غويدي، « **ثلاث محاضرات حول بعض مشكلات الاستشراق العامة** » حوليات معهد فقه اللغة والتاريخ الشرقيين، مجلّد مهدى إلى جان كوبار، بروكسل ١٩٣٥، ص ١٧١ - ١٧٢).

- **M. Guidi. «Trois Conferences sur quelques problèmes généraux de l'Orientalisme».** Annuaire de l'institut de philologie et d'histoire orientales - volume offert a Jean Copart, Bruxelles. 1935. 171 - 172.

(٤) خط التشديد لنا (المؤلف). وهي تنمّ بوضوح عن مرجعية الذات، أي أوروبا .

(٥) م. غويدي، المرجع المذكور سابقاً، (ص ١٧١ - ١٨٠)؛ وهو في عام ١٩٥٤، يحدد الاستشراق كما يلي: « إن العالم بأمور الشرق، أي المستشرق الجدير بهذا الاسم، ليس ذاك الذي يقتصر على المعرفة ببعض اللغات الغريبة، أو ذاك الذي يستطيع وصف العادات والتقاليد التي تشبعها بعض الشعوب الاجنبية، بل ذاك الذي يقوي على الجمع بين دراسة بعض الجوانب من الشرق وبين معرفة القوى الروحية والمعنوية الكبرى التي أثرَّت على تكوين الثقافة البشرية، إنه ذاك الذي نهل من معين الحضارات القديمة واستطاع أن يقيِّم أدوار مختلف العوامل التي ساهمت في تكوين حضارة القرون الوسطى مثلاً، أو حضارة النهضة الحديثة » (« علم الشرق وتاريخ العمران »، الزهراء، ربيع الأول ١٣٤٧ هجرية، آب ـ أيلول ١٩٢٨، عند يوسف أسعد داغر، « مصادر . . . »، ص ٧٧١).

(٦) حول تعريف « المحورية الاوروبية »، انظر بشكل خاص: ج. نيدهام « حوار اوروبا وآسيا »، مجلة كومبراندر، العدد ١٢، ١٩٥٤، (ص ١ - ٨).

- **J. Needham. «La dialogue entre l'Europe et l'Asie».** Comprendre. No. 12. 1954. 1 - 8.

وانظر أيضاً مقدمة كتابنا « **مصر مجتمع عسكري** » باريس، لوسوي، ١٩٦٢؛ (ص ٩ - ١٣).

- **A. Abdel - malek. «Egypte société militaire».** Paris. Le Seuil. 1962. 9 - 13.

(٧) ر. شواب، « **الاستشراق في ثقافة وآداب الغرب الحديث** » - اورينتو مودرنو، المجلد ٣٢، ١٩٥٢، العددان الأول والثاني، (ص ١٣٦).

- **R. Schwab. «l'orientalisme dans la culture et les litteratures de l'Occident moderne».** Oriento Moderno XXXII. 1952. No. 1-2, 136.

(٨) أ. ج. اربري، المرجع المذكور سابقاً .

(٩) ي. أ. داغر، « **مصادر . . .** »، ص ٧٧٩ - ٧٨٠ . [مرجع سابق] .

(١٠) ج. بيرك، « **مائة وخمسة وعشرون عاماً من علم الاجتماع المغربي** » - حوليات، مجلد ١١، عدد ٣، ١٩٥٦، (ص ٢٩٩ - ٣٢١).

- **J. Berque. «Cent Vingt - cinq ans de sociologie maghrébine».** Annales. XI. 1956. No. 3.

(١١) أوَليست الدراسات العليا، وخاصة منها الدراسات الشرقية، من لغوية وتاريخية، تشكل المساعد الأكبر لسياسة التوسع الاستعماري التي تنتهجها إيطاليا ؟، (أ. كاباتون) « **الاستشراق الاسلامي وإيطاليا الحديثة** » - مجلة العالم الاسلامي، المجلد ٨، عدد ٢٧، ١٩١٤؛ (ص ٢٤):

- **A.Cabaton, «L'Orientalisme musulman et l'Italie moderne»** - Rev. Md. Mus., VII, 1914, No. 27, 24.

أمَّا التعليق المثير الذي كتبه « لورنس »، كملحق لكتابه « **أعمدة الحكمة السبعة** » (لندن، ١٩٦٢) فهو مشهور، وفيه يقع الكاتب في

أحابيل لعبته نفسها :

« إن الأمة الفرنسية تعمل، وتراكم أعمالها، فهي من قناصلها المغامرين إلى طوباويّيها الذين يرسمون الطرق للسكك الحديدية، إلى رحّالتها المبهورين، كلامارتين، وباريس تبني في الشرق صرحاً منيفاً يشيّد أمثال شامبوليون وساسي ورينان جانبه العلمي. في تلك الأثناء يهمل العرب ماضيهم ويتلعثمون في النطق بلغتهم الفصحى. لقد ولد الاستشراق المعاصر من شقوق هذا الفراغ بالذات، إن أعمال التنقيب وإحياء العديد من النزوات المعنوية كانت من نصيب المتبحّر المسيحي، مثلما كان مسيحي المصرفي يعمل على إحياء الأراضي الموات وملء المستودعات (. . .) انظروا مثلاً إلى القبيلة العربية، إلى البداوة بشكل عام. إن الاستشراق يعالجها لصالح ثلاث دفعات سياسية كبرى: حقبة « مكتبنا العربي » في الجزائر حتى عام ١٨٧٠، ثم حقبة « الثورة في الصحراء » إبّان اقتحام العملاء البريطانيين الادنى، ثم حقبة التوسّع النفطي المعاصر » (جاك برك ـ « آفاق الاستشراق المعاصر ») .

- J. Berque. «Perspectives de l'Orientalisme contemporain». - Ibla. XX. 1957. 220 - 221.

في عام ١٨٢٢، ندب مؤسسو « الشركة الآسيوية » أنفسهم « لمساعدة المؤرخين على تفسير المخلفات القديمة التي تركتها شعوب الشرق »، ولجمع « وثائق ثمينة حول العمليات الدبلوماسية التي كانت تتم في المشرق، فضلاً عن العمليات التجارية التي كانت تجري في كل أنحاء آسيا ». ومن بين المسائل التي طرحت على المستشرقين في ليون، نلفت النظر إلى المسائل التالية : « هل إن من مصلحة الأوروبيين أن يطالبوا بأن تمنحهم الاتفاقيات حق الاقامة داخل الصين، حتى يتسنى لهم أن يشتروا بأنفسهم من المنتجين كميات الشرانق والحرير، وأن ينشئوا في البلاد مصانع للغزل والحياكة، ويتولوا أعمال التجارة بشكل عام؟ ما هي المكاسب والأضرار التي تنشأ عن مجيء الحمالين الصينيين إلى بلد أجنبي؟ » نصوص يذكرها . ج . شسنو، « **الأبحاث الماركسية ويقظة آسيا وافريقيا المعاصرة** » ـ لاَبنسيه، عدد ٩٥، كانون الثاني ـ شباط ١٩٦١ ؛ (ص ٤ ـ ٥) .

– J. Chesneaux. «La Recherche marxiste et le réveil contemporain de l'Asie et de l'Afrique» - La pensée. No. 95. Janvier-Fevrier 1961. 4-5.

(١٢) حول النمطية العرقية، انظر، م . رودنسون، « **مصر الناصرية في مرآة الماركسية** » ـ الأزمنة الحديثة، عدد ٢٠٣، نيسان ١٩٦٣، (ص ١٨٥٩ ـ ١٨٦٥) .

- M. Rodinson. «L'Egypte nasserienne au miroir marxiste». Les Temps Modernes. No. 203. Avril 1963. 1895 - 1865.

(١٣) ج . بيرك، و ل . ماسينيون: « **حوار حول العرب** » ـ مجلة إسبري، ٢٨، ١٩٦٠، عدد ٢٨٨ ؛ (ص ١٥٠٦) .

- J. Berque et L. Massignon. «Dialogue sur les Arabes». Esprit. XXVIII. 1960. No. 288. 1506.

حول العلاقات بين الاستشراق والاستعمار، إليكم هذه الكلمات التي وردت على لسان ماسينيون: « أنا نفسي كنت متحمساً لعملية الاستعمار في ذلك الحين، وقد كتبت له لكي أعرب عن أملي بفتح قريب للمغرب بواسطة السلاح، وقد أجابني بالموافقة (رسالة رقم ١ لابن صلاح، تشرين الاول ١٩٠٦)، ولنعترف بأن المغرب كان في ذلك الحين يعاني من وضع رهيب. لكن خمسين عاماً من الاحتلال ما كان لها بدون « ليوتي » وبدون مثله الأعلى الفرنجي ـ الاسلامي، أن تسفر عن شيء يذكر ». « **فوكو في الصحراء أمام إلّه ابراهيم وهاجر وإسماعيل** »، أيام الثلاثاء في دار السلام ـ ١٩٥٩ ؛ (ص ٥٩) .

- L. Massignon. «Foucauld au desert devant le Dieu d'Abraham. Agar et Iësma». Les Mardis de Dar el - Salam. 1959. 59.

(١٤) نجد انتقادات محددة لدى « لجنة المساعدات الجامعية: تقرير اللجنة الفرعية حول الدراسات الشرقية والسلافية والاوروبية الشرقية والافريقية » (لندن، ١٩٦١)، بإشراف سير وليام هايتر .

- University Grants Commitée: Report of the sub - Commitee on oriental. slavonic. East European and African Studies (Londres. H.M.S.O.. 1961):

« إن الدراسات الحديثة حول الشرق الأقصى، هي عبارة عن صفحة غامضة لدى جميع المؤرخين أو علماء الاجتماع » (ص ٣٨) . « وإذا

أمعنَا النظر في مواصفات الأقسام اللغوية (في الجامعة)، ونظرنا إلى قلة اهتمامها بالدراسات الحديثة واللغات، أدركنا لماذا ساهم كل ذلك في وصولها إلى نتائج مؤسفة» (ص ٤٦)، . . . الخ. وقد صدر مصنَّفٌ منذ فترة وجيزة بعنوان «**دراسات استشراقية مهداة إلى ذكرى ليفي بروفنسال**» جزءان، باريس ١٩٦٢)، يحتوي على واحد وستين مقالاً، من بينها ثمانية فقط تتناول العصر الحديث، وثلاثة مقالات تتناول الوثائق والمراجع.

- **Etudes d'orientalisme dédiées a la mémoire de Lévi - Provençal,** (2 Vol. Paris. 1962).

(١٥) ج. شسنو، «الابحاث . . .»، [مرجع سابق]، (ص ٥).

(١٦) عمر الدسوقي، «**في الأدب الحديث**»، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٥٤، (ص ٣٢٥ - ٣٢٦). ي. أ. داغر «**مصادر . . .**» (ص ٧٧٩). ن. العقيقي، المرجع المذكور سابقاً، (ص ٢٠٧ - ٢٠٩). محمد حسين هيكل، «**حياة محمد**»، مقدمة الطبعة الثانية (الطبعة السادسة القاهرة، ١٩٥٦) (ص ٦٠ - ٦١). أنور الجندي، «**الادب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج**» - القاهرة، ١٩٥٩، (ص ٦٢١ - ٦٢٤)، ثم «**الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية**» - القاهرة، ١٩٦٢، (ص ٢٧١ - ٢٨٥)، . . . إلخ.

(١٧) لا سيما «معهد المخطوطات العربية» بإشراف الجامعة العربية. «مجلة المخطوطات العربية» التي تصدر عن المعهد المذكور في القاهرة منذ ١٩٥٥. إنشاء «معهد الأبحاث الاسلامية» الجديد التابع لجامعة الأزهر تحت إشراف الأستاذ عبد الله العربي، (الاهرام، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦١)؛ كما تنبغي الإشارة إلى الجهد المبذول في مجال إحياء التراث من قبل وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر، لا سيما بتوجيه من فتحي رضوان وحسين فوزي وثروت عكاشة، وهناك جهود تضارع هذا الجهد في سورية والعراق بشكل خاص. في مصر شرع المفكر الوجودي عبد الرحمن بدوي منذ عام ١٩٤٠ بوضع مصنف واسع، أحيى العديد من الكتابات الاسلامية. بينما عمد العالم اللغوي الكبير مراد كامل إلى إحياء المجال القبطي والحبشي والسامي بجدارة.

(١٨) يشير بيرك إلى ذلك بإسهاب إشارة نقدية في كتابه «**المغرب بين الحربين**» - منشورات لوسوي، باريس، ١٩٦٢؛ وفي محاضراته في كوليج دي فرانس:

- J. Berque. «le Magreb entre les deux geurres». Les Seuil. Paris. 1962.

كذلك يشير إليه ج. ب. نيش، «**علاقة الدراسات الشرقية بالتجارة والفن والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**»

- J. P. Naich. «The connection of oriental studies with commerce. Art and Literature during the XVIII th and XIX th Centuries», Journ, March. Eg. and or. soc.,XV 1930, 33-39.

انظر أيضاً: ج شسنو «**التأريخ الفرنسي وتطور فيتنام المستعمرة**» - لندن ١٩٦١، (ص ٢٣٥ - ٢٤٤).

- J. Chesneaux, «French Historiography and the evolution of colonial Vietnam», in D.G.E. Hall, Historical writing on the peoples of Asia - Historians, of South-East Asia: Oxford-Londres, 1961, 235-244.

(١٩) انظر: م. خالدي وع. فروخ: «**التبشير والاستعمار في البلدان العربية**»، **صيدا - بيروت ١٩٥٣**.

(٢٠) حول هذه المقولة، انظر: ر. مكاريوس، «**الشباب المثقف في مصر غداة الحرب العالمية الثانية**»؛ باريس - لاهاي، ١٩٦٠.

- R. Makarius. «La jeunesse intellectuelle d'Egypte au Lendemain de la deuxieme guerre mondiale»; Paris - La Haye. 1960.

وانظر مقالنا «**المشكلة الاستعمارية من منظار العالم الافرو أسيوي**»:

- «La Vision du problème colonial par le monde Afro - Asiatique» in notre «dialectique sociale». Paris. le Seuil. 2. (63 - 77).

(٢١) لم يقصّر جاك بيرك، صديق النهضة العربية والوسيط بين ثقافتينا في - إزجاء التقدير لعدد من مثقفينا؛ وأنا بالذات أشكره، على تنويهه مراراً، بأعمالنا - لا سيما محمود العالم وأنا، فضلاً عن كتّاب القصص والروايات من المدرسة الواقعية المصرية - وذلك أثناء محاضراته في

كوليج دي فرانس، وفي مقاله « **القلق العربي في الازمنة الحديثة** » (مجلة الدراسات الاسلامية، مجلد ٢٦، ١٩٥٨، عدد ١، ص ٨٧ ـ ١٠٧)، وفي كتابه « العرب . . . » (ص ١٠٢)، . . . إلخ .

- **J. Berque. «L'inquiétude arabe des temps modernes» (Revue des études islamiques. XXVI. 1958. No. I. 87 - 107).**

(٢٢) رغم ذلك، فإن ارنست رينان هو الذي نظر في فرنسا لمسألة التمييز بين السامية والآرية، زاعماً أن شعوب الفريق الأول، يظلون أدنى من شعوب الفريق الثاني على كافة الأصعدة (انظر: « **التاريخ العام والسستام المقارن بين اللغات السامية** »، القسم الأول ـ باريس ١٨٥٥)

- **E. Renan. «Histoire générale et systéme comparée des langues sémitiques». 1ère partie. Paris. 1855.)**

ويستلهم د . كيمسون آراءه من هذا الكتاب في مؤلفه « **مرض الاسلام ووسائل القضاء عليه** »، باريس ١٨٩٧ .

- **D. Kimson. «Pathologie de l'Islam et moyens de le detruire». Paris 1897.**

إن هذه النظرية ما فتئت تخضع للنقد منذ ذلك الحين، وتتهافت أمام انتقادات المفكرين والعلماء في العالم العربي .

(٢٣) (ص ١٠ ـ ١١) . علماً بأن التحليل النقدي لهذا الكتاب ليس اليوم من اهتماماتنا .

(٢٣مكرَّر) ترجم الدكتور علي سعد كتاب « جاك بيرك » هذا إلى العربية، ونشرته « مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت » . والكتاب نموذج فصيح للترجمة التي تشوّه فكر المؤلف ووعي القارىء . في هذه الفقرة اليسيرة الشأن التي أعدنا ترجمتها هنا، لا أقلَّ من خمسة أخطاء نافرة: السبب الذي يحدو بالباحث إلى **الامتناع** عن الإدلاء بنظريته، صار في الترجمة سبباً **يحمله على الإدلاء** بها . ومساهمته النظرية التي من شأنها أن تعزز عفوية العرب، انقلبت في الترجمة إلى « مساهمة تكبر (هي نفسها) مع العفوية التي يستعيدها العرب » . وفيما يتحدث المؤلف عن « انتقادات من الداخل » قد تثيرها مساهمته، يتحدث المترجم عن « انفعال النقد من داخل » . وإذا قال المؤلف إنه يظل قادراً « على الانسحاب » في حال فشل مساهمته، يقول المترجم إنه « ينعم بأفضلية الابتعاد » . هذا، فضلاً عن الالتباس الناشىء عن ترجمة « سستام » بـ « نظام »، لما يوحي به « النظام الخارجي » في سياق النص بأن المعنيّ هو النظام السياسي . ويضرب الكتاب رقماً قياسياً بأخطائه اللغوية والمطبعية، فلا يقل عدد صفحات جداول « الخطأ والصواب » فيه عن (١٥)صفحة . [المترجم] .

(٢٤) « **المغرب بين الحربين** » ـ باريس، لوسوي، ١٩٦٢، (ص ٨) .

(٢٥) « آفاق . . » [مرجع سابق]، (ص ٢٣٧) .

(٢٦) يجد القارىء عرضاً للنتائج النظرية في « **التعبير والدلالة في الحياة العربية** » ـ مجلة لوم (الانسان)، ١، ١٩٦١، عدد ١، (ص ٥٠ ـ ٦٧) .

- **«Expression et signification dans la vie arabe». L'Homme. 1. 1961. No. 1. P. 50 - 67.**

(٢٧) « والتقرير المعتمد ما بين فروع لجنة الاستقصاء حول الدراسات الشرقية والسلافية والاوروبية الشرقية والافريقية »، لندن، ١٩٤٧

- **Report of the Interdepartemental Commission of Enquiry on oriental, Slavonic, East Europeen and African Studies». Londres, H.M.S.O., 1947.**

انظر تعليق أ . اربري، [المرجع المذكور]، (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٩) . تحليل وجردة بالخلاصات في تقرير هايتر، (ص ٦ ـ ٤٠) .

(٢٨) تقرير هايتر، (ص ٤٥ ـ ٥٢) .

(٢٩) المرجع نفسه . . . (ص ٥٣ ـ ٦٣)، يشير الجنرال ب . روندو، في دراسته « **الولايات المتحدة أمام الشرق الراهن** »، أوريان، ١٩٥٧، عدد ٢، (١٩ ـ ٢٢) . وعدد ٣، (٣١ ـ ٨٠) .

- **P. Rondot, «Les Etats-Unis devant l'Orient d'aujourd'huit». Orient, 1957 No.2, 19-52. No.3, 31-80.**

إلى دور المؤسسات الخيرية ومدرسة لغات ومناطق الشرق الأدنى لدى السفارة الأميركية في بيروت . ولدى الجامعتين الأميركيتين في بيروت والقاهرة (ونلاحظ أن هذه الأخيرة هي المؤسسة التعليمية العليا الأجنبية الوحيدة، المرخص لها للعمل في الجمهورية العربية

المتحدة). أمّا الحيثيات التي تقدمت بها جامعة ميتشيغان (آن اربور) لتوسيع برنامج دراستها حول الشرق الحديث، فهي التالية: « ١ - تعريف الشرق الأدنى لأوسع عدد ممكن من الأميركيين. ٢ - تشجيع الفكرة القائلة بأن للولايات المتحدة مصلحة حيوية في نمو هذه المنطقة حالياً ولاحقاً. ٣ - تكوين فريق عمل من الأميركيين الخبيرين في شؤون الشرق الأدنى ». غير أن حكم المؤلف على العمل الذي تمّ إنجازه متحفظ كل التحفظ. انظر: ر. بايلي وندسور « **الدراسات العربية والاسلامية في الولايات المتحدة** »، ميدل ايست فوروم، عدد ٣١، حزيران ١٩٥٦، (١٩ - ٢٢):

- R. Bayly Windsor, «Arabic and Islamic studies in the U.S.» Middle East Forum. No.31, Juin 1956, 19-22.

(٣٠) « **شرح التاريخ الاسلامي** ». دفاتر التاريخ العالمي، المجلد ١، ١٩٥٣، (٣٩ - ٦٢):

- «An Interpretation of Islamic History». Cahier d'histoire mondiale. 1. 1953. 39 - 62.

(٣١) راجع: « **من أجل دراسة المجتمعات الشرقية المعاصرة** » - مجمع دراسة السوسيولوجيا الاسلامية مجلة أكت، ١١ - ١٤ ايلول ١٩٦١، بروكسل، ١٩٦٢:

- «Pour l'étude des sociétés orientales Contemporaines». Colloque sur la sociologie musulmane - Actes. 11-14 sept. 1961. Bruxelles 1962.

« إن في اجتماعنا هنا للكلام على المجتمعات الشرقية في غياب زملائنا الشرقيين مفارقة (...) لا بد من التأمل فيها، إذ إن تفسيرها يقودنا على ما أعتقد إلى ما يتخطّى الظروف السياسية ليفضي بنا إلى إعادة نظر بمناهج فرعنا، بل ربما أيضاً بموضوعه » (ص ٨٥)، « إن غياب زملائنا الشرقيين عن مجمعنا هذا أمر مؤسف، لا يتعلّق كما يعتقد البعض بأسباب سياسية، بل يتعلّق بضيق عميق مرتبط بطبيعة المجتمع الذي ندرسه بالذات، من حيث علاقاته بمجتمعنا »، غير « أننا لا نتحمل وزراً في كوننا على نحو ما ذكرت » (ص ٤٥٧).

(٣٢) « **آراء وشطحات عنا وعن تاريخنا** » - الاهرام، ٢١ كانون الاول ١٩٦٢.

(٣٣) تنبغي الإشارة بشكل خاص إلى: « **مشكلة التبادلات الثقافية** » دراسات ليفي بروفنسال..

- «Le Problème des échanges culturels». Etudes Levi - Provençal.. 1. 141 - 151.

الذي يلخص أطروحات الأجزاء المنشورة من قبل المؤلف، لا سيما « **الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية** » - شيكاغو، ١٩٥٥:

- «Unity and Variety In Moslem Civilisation». Chicago. 1955

وبالاشتراك مع و. هارتنر:

- W. Hartner. «Klassizismus und kulturverfall» Frankfurt. 1960. «An analysis of islamic civilisation and cultural anthropology», in Actes coll., Bruxells, 21-71.

(٣٤) في الصفحة التي يحتج المؤلف فيها بقوله: « من المؤسف أن تكون الفوضى في استعمال التعابير أمراً شديد الواقعية، وأن الهروب من الوقائع والالتجاء الى الثرثرة الكلامية أمر شائع.. » - ويمكن الاشارة الى الأخطاء التالية: ان استبدال تعبير « الحياد الايجابي » (Neutralisme positif) بتعبير « عدم الانحياز » (Non-engagement) ابتداء من عام ١٩٥٩ لم يحصل بناء على أن التعبير الأول « غير موفق » والثاني « أقرب الى التوفيق »، بل بناء على التوجه الجديد الذي طرأ على السياسة المصرية بعد مؤتمر باندونغ وابان فترة القمع عام ١٩٥٩ (انظر كتابنا « مصر... »، ص ٢١٩ - ٢٤٢)، ثم ان كلمة Cadres التي تترجم بـ « اطارات » في افريقيا الشمالية، لا يعبر عنها بـ « ملاك » في بلدان الشرق بل بما هو أبسط من ذلك، أي بـ « كادر »، أما structure فيقال لها في المصطلحات الفلسفية (تركيب) ولا يقال أبداً (هيكل) أو (جهاز) أو (نظام). ويندهش المرء حين يعلم ان كلام السيد عبد الله ابراهيم، في ٦ نيسان ١٩٥٩، هو الذي « يشق الطريق أمام لغة عربية حديثة تعبر الكلمات فيها عن الواقع » (وقبل؟) فـ (نقابات) مقابل Syndicats مستعملة منذ ١٩٠٨ في القاهرة - و(الجهاز الاساسي) مقابل Infrastructure هو في مصر (التركيب الأساسي) في حين أن (التركيب العلوي) تستعمل مقابل

Superstructure وذلك منذ ١٩٤٠ - ١٩٤٥ في أوساط المثقفين الماركسيين في الشرق منذ انخراطهم بمعركة التحرر والبناء القومي (العربية الحديثة)، باريس، ١٩٦٠ ص ٣٦٠.

- L'Arabe Moderne, Paris, 1960, p.360.

انظر أيضاً: مكسيم رودنسون، في « **دفاتر الشرق المعاصر** »، عدد ٥٠، ١٩٦٢.

- M. Rodinson. «Cahier de l'Orient Contemporain». No - 50. 1962.

(٣٥) يقول ج. بيرك: « إن هذه البلدان التي تتطلع إلى صنع التاريخ، ما زالت تفتقد حالياً لكراسي التاريخ الحديث في جامعاتها، (« **حوار**...، ص ١٥٠٨). ينبغي أن نشير إلى الكتابات التي تناولت التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة القاهرة منذ جيلين، وكذلك في دمشق وبغداد والاسكندرية، في عدد واحد من مجلة « محاضر الجمعية الملكية للدراسات التاريخية » (القاهرة، ١، ١٩٥١، نشر عام ١٩٥٢):

«Proceedings of royal society of historical studies»

هناك (٧٧) صفحة من أصل (١٩٤) مخصصة للتاريخ المعاصر (انظر مقالي م. م. صفوت والشيال). وهناك كراسي للتاريخ الحديث والمعاصر في كليات الآداب والعلوم السياسية بشكل خاص، بالطبع لا نشير هنا إلاّ إلى نماذج وعينات على سبيل العد لا على سبيل الحصر. انظر: نقد التاريخ العربي المعاصر عند أ. ج. شيجن، « **التعامل مع التاريخ من قبل الكتّاب العرب الحديثين** » - ميدل إيست جورنال، ١٤، ١٩٦٠، ٤، (٣٧٢ - ٣٩٦):

- A. G. Chejne. «The Use of history by modern Arab writers».
- Middle est journ. XIV. 1960, 4; 382 - 396.

ولنذكر أيضاً أن هناك جهداً كبيراً قد بذل في البلدان الاوروبية التي لم تنخرط تماماً في الاستعمار التقليدي: حول المانيا، انظر:

- L. Rathmann. «Zur Widerspiegelung anti imperialistichen Befreigungsbewegung des arabischen Völker in der bürgerlichen deutscen Historiographie»- Zeitschrift Geschichtswissenschaft, Berlin, X, 1962, No.3, 548-574.

وحول اسبانيا، انظر: ف. كانتيرا بورغوس، « **الدراسات الشرقية في اسبانيا الحالية** ».

- F. Cantera Burgos. «Los estudios orientales en la Espana actual». Oriente Moderno. XXXV. 1955. No. 1; 336 - 247.

(٣٦) « **آفاق الاستشراق...** » ٢١٨ - ٢٣٢. نجد نفس الأطروحة في مجمع بروكسل: « على السوسيولوجيا الاستشراقية أن تنخرط في المجتمعات الشرقية، لا عن طريق المعرفة التي كانت ترتبط في ما مضى بالتوسع الاستعماري، بل عن طريق المشاركة في التحليل، أي عن طريق البناء من الداخل. » (**أكت**... ٤٥٨، ٤٥٩).

- هـ، كروز - البشوزن، « **الدراسات الاسلامية في المانيا ما بعد الحرب** » - مجلة الثقافة الاسلامية، مجلد ٣٦، ١٩٥٢ - عدد ٢، (٥١ - ٥٦).

- H. Kruse - Elbeshausen. «Islamic studies in post war Germany» Islamic culture. XXXVI. 1952. No. 2. 51 - 56.

- في اسبانيا، انظر: ف، كانتيرا بورغوس، [المرجع المشار اليه أعلاه]،
- في بلجيكا: انظر ج. ريكمانز، « الاستشراق في بلجيكا »
- G. Ryckmans. «L'orientalisme en belgique». Revue gen. belg. 1947. No. 23. 724 - 738.
- في ايطاليا، انظر: ا. روسي، « **الدراسات حول الشرق الأدنى في ايطاليا** »:

- E. Rossi. «Near Eastern studies in Italy». Middle Eastern Affairs. VII. 1957. No. 2. 27 - 60.

- في فنلندا، انظر: ب، آلتو، « **الدراسات الشرقية في فنلندا** »:

- P. Aalto. «les études orientales en Finlande». Archiv orientalny. 1951. No. 19. 79 - 84.، و أ. أبيل، « **مقاربات نقدية لدراسة سوسيولوجية حول العالم الاسلامي المعاصر** »:

– A.Abel. «Approches critiques d'une étude sociologique du monde musulman contemporain». Etudes. Bruxelles. 1. 1962. No. 1-2; 3-16.

(٣٧) « **الاسلام والتاريخ الحديث** »، پرنستون، ١٩٦٠، الترجمة الفرنسية، ١٩٦٢، ١٣.

- «Islam and Modern History». Princeton. 1962. 13 (trad. Française)

حيث نقرأ وفقاً للذهنية نفسها: « أن عدداً كبيراً من المسيحيين، بالإضافة الى المؤلف، يسعدهم جداً أن يقوم أحد الكتاب المسلمين بدراسة مماثلة عن المسيحية المعاصرة ». يزخر هذا الكتاب بالتحليلات الشيّقة ويقدم نظرة إجمالية على الواقع الاسلامي في آسيا وأفريقيا.

(٣٨) تصل موازنة معهد جامعي واحد في الولايات المتحدة ـ « نير استرن سنتر » التابع لجامعة كاليفورنيا في لوس انجلوس ـ إلى ستة أضعاف الموازنة السنوية لبلد اوروبي صغير . . .

(٣٩) يحتل العديد من أساتذة اللغة العربية وظائف تعليمية في مختلف الجامعات الأميركية، بينما ينصرف آخرون إلى الإشراف على عدد من الأقسام المختصة بالبحوث.

(٤٠) إن تحليل « المقالات والدراسات » الواردة في « جدول سنوات ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢ » من المجلة المحدثة الجديدة « **لوريان** »L'Orient ، يحفل حول هذه النقطة بالكثير من المعاني: أربعة كتاب محليين من أصل زهاء خمسة وسبعين كاتباً. صحيح، أن قسماً كبيراً من المجلة قد خصص لتقديم نصوص حول الأدب والفكر والدين والسياسة في بلادنا. لكن هذه المواد تظل مواد يشتغل عليها المحلّل الذي يحتفظ لنفسه، والحالة هذه، بموقع المشرف.

(٤١) « **مشكلات تاريخ الشرق الاوسط** »، واشنطن، ١٩٥٦، في « دراسات حول حضارة الاسلام » لندن، ١٩٦٢، ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

- «Problems of Middle Eastern History». Washington. 1956. in «Studies on the civilization of Islam». Londres. 1962. 342 - 343.، والمؤلف لا يريد أن يأخذ بالاعتبار أعمال البحوث التاريخية والسوسيولوجية التي دارت حول الشرق الاوسط (٣٣٩ ـ ٣٤٠)، اللّهم إلاّ « **مقدمة لتاريخ التربية في مصر الحديثة** » لمؤلفه ج. هايوارث ـ دون:

- J. Heyworth - Dunne. «Introduction to the History of education in Modern Egypt». Londres. 1938.

أما الكتاب الهام، الذي وضعه مونتغمري وات، بعنوان « **الاسلام وتوحيد المجتمع** » ـ لندن، ١٩٦١.

- W.Montgamry Watt. «Islam and the integration of society» - London 1961.

وهو مبنيٌّ على نظريات ك. **مانهايم**، فهو لا يذكر كلمة عن الأعمال العربية الجديدة. وأما م. رودنسون، فهو يشير إلى أهمها في مقاله « **جردة بالدراسات المحمدية** » ـ المجلة التاريخية، عدد كانون الثاني ـ آذار ١٩٦٣، (١٦٩ ـ ٢٢٠).

- M. Rodinson. «Bilan des études mohammadiennes». Revue historique. Fasc. 465. Jan.-Mars 1963. 169 - 220.

(٤٢) على الصعيد « الجامعي »، انظر كتابين: لـ ج. استروي الذي ينظّر حول « الانسان الاسلامي (اومو اسلاميكوس) انطلاقاً من جهل مطبق باللغة والثقافة العربيتين: « **البنية الاقتصادية والحضارة ـ مصر وقدر الاسلام الاقتصادي** » (اطروحة دكتوراه، ١٩٦٠)؛ ثم « **الاسلام تجاه النمو الاقتصادي** » ـ باريس، ١٩٦١.

- J. Austruy. «structure économique et civilisation - L'Egypte et le destin économique de l'Islam» (th. dr., 1960). «L'Islam face au developpement économique». paris. 1961.

على الجانب الصحافي، يطلق ج. **وس. لاكوتور** حكمهما، من حيث الثقافة والدين: «هل يُعذر المؤلف إذا كان قد تناول مثل هذا الموضوع رغم عدم إلمامه بالعربية؟»، ثم يشير إلى بعض الهفوات بالقول: «فنحن لا نقصد هنا إلاّ الثقافة الوطنية» . . . : «**مصر في حراك**»، الطبعة الثانية ـ باريس، ١٩٦٢، (٣٠٦ ـ ٣٤٣).

J. et S. Lacouture. «L'Egypte en mouvement». 2e éd. - Paris. 1962. 306 - 343.

رغم ذلك، فالكتاب يحفل ببعض اللقطات الشيِّقة. في نفس الوقت، نشر س. لاكوتور كتاباً بعنوان «**مصر**» ضمن مجموعة «الكوكب الصغير» (بوتيت بلانيت) ـ باريس، ١٩٦٢؛ حيث يحكم على الأدب والفكر والفن... إلخ. بلهجة قاطعة، تولي مكاناً واسعاً لكتاب أجانب يعيشون في مصر، لكنهم مجهولون تماماً في الجمهور، ويستطيع المرء بالطبع أن يُكثر من الأمثلة المشابهة... «خذوا فقط مسألة الآداب. إن واحداً من غير الاوروبيين، إذا ما تواجد في قاعة المطالعة الكبرى في المتحف البريطاني، أو في المكتبة الوطنية (الفرنسية)، وتساءل عن قيمة كل هذه الكتلة الضخمة من الكتب، لا بد أن يُعتبر بمثابة البربري المخيف. لكن في العالم آداباً لا تقل ضخامة عن آدابنا، كالأدب الصيني مثلاً، لا يفقه الاوروبي العادي منها كلمة واحدة حتى لو كان مثقفاً. أليس هذا الاوروبي بدوره بربرياً؟» (ج. نيدهام، **الحوار...**، ٣، رقم ١). هذا، ويطلق **برمون** حكمه، في دراسة سريعة حول «**وسائل الاتصال الجماهيري في البلدان الآخذة بالنمو**» (في مجلة «كومينيكاسيون» ٢، ١٩٦٢؛ ٥٧ ـ ٦٧)

- C. Bermond. «les communications de masse dans les pays en voie de dévéloppement». communications. II. 1962. 57 - 67.، وذلك انطلاقاً من تقارير وضعها خبراء اوروبيون، دون إشارة واحدة إلى أعمال الكتاب المحليين، مهما كان أمرهم ومن أيّ بلد كانوا.

(٤٣) يعطي كتاب «**الاسلام والرأسمالية**» (باريس، لوسوي، ١٩٦٦)، فكرة أولى عن هذا العمل:

- M. Rodinson. «Islam et capitalisme». Paris. le seuil. 1966.

(٤٤) «عندما عزمت في ذلك الحين (١٩٥٠)، على توجيه أبحاثي نحو تاريخ البروليتاريا الصينية والحركة العمالية الصينية، غداة ثورة اكتوبر والحرب العالمية الأولى، كانت المسألة بالدرجة الأولى، بالنسبة لي، نوعاً من الرهان الباسكالي الذي يعبِّر عن قناعة مفادها أنه من الممكن والواجب، في نفس الوقت، أن تصبح دراسة تاريخ الصين المعاصر فرعاً من فروع المعرفة يتصف فعلاً بالصفة العلمية.» «**أبحاث حول تاريخ الحركة العمالية الصينية**» ـ مجلة الحركة الاجتماعية، عدد ٤١، أكتوبر ١٩٦٢، (١ ـ ١٢).

- «Recherches sur l'histoire du mouvement ouvrier chinois». Mouvement Social. No41. octobre. 1962. 1 - 12.

إن اختيار موضوعة البحث المركزية ـ «الحركة العمالية» لا «الحركة القومية»، يتصل بمشكلة الماركسية الاوروبية.

(٤٥) يملك المؤلف مكتبة فريدة في بابها في العالم، تحتوي على كتب ووثائق ذات صلة بالعلم والتكنولوجيا، فضلاً عن شلّة من المساعدين، الذين يحيطون به في «معهد كونجفيل وكايوس» الذي يتولى الاشراف عليه، منهم: وانغ شينغ ننغ، لي جوي ـ دجن، هو بنغ يو، كينيث روبنسون، رزاو شين ـ شن.

المجلدات المنشورة (حتى عام ١٩٦٣): المجلد **الأول** «مداخل توجيهية» كمبردج ـ لندن، ١٩٥٤. المجلد **الثاني**: «تاريخ التفكير العلمي» ١٩٥٦. المجلد **الثالث**: «الرياضيات وعلوم السماوات والأرض» ١٩٥٩. المجلد **الرابع**: «الفيزياء والتكنولوجيا الطبيعية»، ١٩٦٣:

-I. «Introductory orientation». Cambridge - Londres. 1954.

II «History of scientific thought». 1956.

III «Mathematics and the sciences of the heavens and the Earth». 1959.

IV «Physics and physical Technelogy-physics». 1963.

(٤٦) يشير و. ز. لاكور إلى دورية الاستشراق المركزية الجديدة في الاتحاد السوفياتي Sovetskoe Vostokuvdenie، التي صدرت في ابريل عام ١٩٥٥؛ وينوّه بالدور الحاسم الذي اضطلع به كل من ميكويان، وغافاروف (عضو أكاديمية العلوم واللجنة المركزية للحزب الشيوعي في آن واحد)، ومحي الدينوف وسلطانوف، وكلهم قادة من أصل غير اوروبي؛ ثم يشير إلى بعض المنشورات التي يعتبرها مهمة، لا سيما «ايران المعاصرة»، و «سورية المعاصرة»، وكتاب ليبيديف عن الأردن، ١٩٥٦، وكتاب كوتلوف عن الثورة العراقية عام ١٩٥٨، وكتاب بيلاييف «الامبريالية الاميركية في العربية السعودية» ١٩٥٧، وكتاب كاتافلين «العلاقات الزراعية في سورية» ١٩٥٧، . . . إلخ. (**الاتحاد السوفياتي والشرق الأوسط**) لندن، ١٩٥٩، (١٦٨ - ١٨٦).

- **«the soviet union and Middle East»**. londres. 1959. 168 - 186.

● أهم المنشورات التي تناولت الاستشراق الجديد في البلدان الاشتراكية، (حتى عام ١٩٦٢) هي:

م. برلمان، « **دراسة الشرق الاوسط الاسلامي في الاتحاد السوفياتي ١٩٤٠ ـ ١٩٤٦** »:

- M. Perlman. **«The study of Islamic Middle East in the Soviet Union»**. report on Current Research. 1957. 17 - 26.

ـ ب. ج. غافوروف، « **المهام المباشرة للدراسات الشرقية السوفياتية** »:

- B. G. Gafurov. **«Immédiate Tasks of Soviet Oriental studies»**. vestnik Akademit Nauk. 9. 1957.

- N. A. Mukhtidinov. **«K Novym Uspekham sovets Kogo Vostok - vedeniia»** Moscou. 1957.

ـ م. غوبوغلو، « **اربعون عاماً من الدراسات الشرقية في الاتحاد السوفياتي ١٩١٧ ـ ١٩٥٧** »

- M. Guboglu. **«40 ans d'études orientales en URSS. 1917 - 1957»**. studia et acta orientalia. I. 1958. 281 - 316.، حيث يتحدث عن « انسحاق الطريقة التروتسكية لنمط الانتاج الآسيوي، عام ١٩٣٤ » (٢٩٥).

- «La prima conférnza pan sovietica degli orientalisti i. Tachkent. 4 - 11 Juin 1957». Or. Med. 38. Fevrier 1958. 202.

- W. Z. Laqueur. **«The Shifting Line, in Soviet Orientalogy»** Problems of communism. 5. 1956. 20 - 61:

- R. Lœwenthal. **«Russian Materials on Islam and Islamic Institution. a Selective Bibliography»**. Der Islam. XXXIII, 1958. N0 1 - 2. 280 - 309: puis: **«Russian Materials on Arab Countries. a Select. Bibl.»**. ibid. XXXIV. 1959. 174 - 187:

- **«Dix ans d'études Orientales en Plogne»**. Rocz. Orj. 20. 1956. 7 - 14:

- **D. Sinor. «Dix années d'orientalisme hongrois»**. Journal asiatique. 239. 1951. 211 - 237: Les Actes des journées scientifiques d'orientalisme, Praha - Dobris. 20 - 25 juin 1949:

— J. Ryckmans. **«Les études orientales (islamiques) en Pologne»**. Studia et Acta Orientalia. II. 1959. 161 - 187:

- J. Kabrda. **«Les Études orientales en Yougoslavie»**. Arch. Or. 25. 1957. 146 - 155:

- J. Blaskovic. **«Les Buts. l'Organisation et l'Activité de l'école orientalistiques tchécoslovaque»**. studia et Acta Orientalia. II. 1959. 61 - 69:

- K.petracek. **«Les Etudes arabes et islamiques et la sémitologie en Tchécoslovaquie»**. Arch. Or. 19. 1951. 89 - 107:

مستعمل لتعزيز دعوى الأصل اليهودي المسيحي لا يثبت للمراجعة والنقاش.

ولا يمكن قبول المقابلات وحدها في موضع يحتاج إلى شواهد حاسمة ذات نتائج قاطعة. وهيهات أن تكفي النتف المقتطعة والاشارات والاستدلالات المعتسفة والتخمينات الذكية في هذا المقام، فضلاً عن أي مقام! ونحن نحتاج لخيال قوي جداً لمتابعة القول بأن محمداً ـ الذي قررت الأصول الدينية أنه لم يكن يقرأ أو يكتب كان على التخطيط الذي أنشأه المستشرقون له قد جلس عاكفاً في مكتبته يبحث كتب الأولين لينقل عنها[١٣]، لأجل تأليف الكتاب المعروف بالقرآن! قد يحمل هذا التعبير بعض المبالغة بغير شك، ولكنه يجمل ما تذهب فيه هذه الدعوى إلى التفصيل[١٤]!!.

إن المقابلات والمشابهات خداعة للغاية!! إنها لا تكون بالضرورة دليلاً علمياً على نسبة كتابين متشابهين، إذ يعوزهما التدليل على الاقتباس الواعي من اللاحق للسابق. وقد يجوز أن يكون كلاهما ناقلاً عن مصدر ثالث مشترك!

والحق أن الباحث الذي نظر إلى الكتاب المقدس والقرآن على أنهما وثائق إنسانية قد ينزع بمنطق سليم إلى تتبع بعض ما جاء فيهما من آثار التراث الفعلي المبكر للشرق الأدنى. وعلى أية حال يحتاج إثبات الاقتباس السامي الفعلي بالضرورة إلى شواهد أكثر إقناعاً مما جرى عرضه حتى الآن.

إن **ڤيكو** (Vico)، هو الذي قال إن الأفكار تنتشر عن طريق استكشاف كل أمة ـ أو ثقافة ـ مستقلة عن غيرها لاحتياجاتها في أية مرحلة من مراحل تطورها[١٥]. ولقد قال أحد المستشرقين البارزين نفس القول مع تعزيز بتوضيح إذ يؤكد أن الثقافة المستعيرة ـ في حالتنا التي نعالجها الآن النظام الديني ـ لا بدّ أن تحس هي نفسها حاجتها خلال تطورها الداخلي إلى غذاء من الخارج وكل ما تستعيره في هذا السبيل لن تنتفع منه إلا إذا استند إلى هذه العناصر من الثقافة القومية ـ أو من الدين التي تطلبت الاستعارة والثقافة الحية أو الدين ـ ترفض تلقائياً كل العناصر الدخيلة التي تتعارض مع قيمتها الأساسية[١٦].

وكاتب هذه السطور، لا يرى فيما أريق من مداد سوّد صحائف المجلدات المتعددة عن **أصول** (origins) الإسلام دليلا مقنعاً بالمعنى التاريخي، بحيث يثبت أن مثل هذا الاقتباس قد حدث فعلا. بل على العكس نرى **الشاهد المعاصر الوحيد الذي ما زال باقياً هو من آيات القرآن نفسه، وهذا يستبعد مثل هذا الاحتمال بأقطع عبارة** ومن المستغرب أن هذا الشاهد يطرح جانباً في الغالب ومن هنا تأتي ملاحظة باحث حاذق له جهوده المشكورة في الدراسات الاسلامية حيث يقول: «إن الإسلام يمزج دائماً بين المقدرة على تمثيل العناصر الأجنبية والعزوف عن الإقرار بالأصول التي استمدت منها»[١٧].

وهذه ملاحظة تستحق البحث ولو بصورة عابرة، ما دامت قد أوردت بصورة عابرة! فإذا كان المقصود بكلمة الإسلام هو مدنية الاسلام أو حضارته أو ثقافته، فإن مسألة تمثل العناصر الأجنبية أو مصادر هذه العناصر لم تكن قط محل إنكار[١٨]. أما إذا كان المقصود هو العقيدة والدين، فإن كانت هذه الكلمات لا يكاد يحتاج إلى من يذكّره أن الاسلام اذا ابتغى أن ينفض عنه ما كان مثاراً لنعيه عليه، فإنه لن يكون بعد هو الإسلام في خصائصه المعروفة ولسوف يتخلى عن التعاليم الصريحة في كتابه المقدس. والإسلام كعقيدة كل لا يقبل التجزئة، إما أن يؤخذ كله وإما أن يترك كله.

هناك مثال لكثير من الآراء الفطيرة التي يكاد يخفيها ما يساق من عبارات تبدو مقتبسة ولكنها تفقد رونقها بإمعان النظر عن قرب. وحتى المستشرقين الذين توصلوا مع أنفسهم إلى التوافق على قبول صدق محمد والاعتراف بأنه دعا إلى دين جديد متميز تميزاً أساسياً يعودون ليؤكدوا في الوقت نفسه أن رسالة محمد لم تكن كلها من مصدر إلهي! وهذا نص لباحث آخر له أبحاث قيمة عن حياة محمد، إنه يقول: « إن على الإسلام أن يقر بحقيقة أصله ـ ذلك التأثير التاريخي للتراث الديني اليهودي المسيحي »[١٩]. وهنا تؤخذ مسألة « الأصول » كحقيقة مقررة ويشار إليها على هذا النحو دون تمحيص أو مناقشة[٢٠] وإذا ما استعرنا أسلوب النص ربما قلنا إن على الكاتب أن يقر بأنه لم يصب على أي وجه من الوجهين: عندما اعتبر محمد نبياً صادقاً ثم عزا إليه التلاعب، ما دام وهو الذي يفترض أنه مؤلف القرآن لم يعترف بما اكتسبه من أفكار الآخرين!

إن هذا الازدواج يرجع للتناقض مع النفس، وهو غير مقنع في أي من وجهتي النظر في المسألة، لأنه لا يؤيد إحدى الوجهتين كاملة ولا ينقض الأخرى تماماً. والمسلم المؤمن سيظل على موقفه، كما سيبقى هذا المجادل على موقفه. أما الكاتب الذي درب على معالجة التاريخ فهو لا يحاول أن يركب جوادين في وقت واحد. وقد تكون هذه المحاولة للتوفيق جديرة بالتقدير، ولكن نتيجة المحاولة المخيبة لآمال كل من المؤيـد للعقيدة والمعارض لها على السواء، كما أنها لا تلقى ترحيباً من المؤرخ المحايد الذي يفتقد الأدوات اللازمة للتحليل. والحق أنه على الرغم من التقدم في كتابة التاريخ العلمي، فإن هؤلاء **الازدواجيين** (dualists) في الدراسات الإسلامية قد أسهموا بجهود قد تكون متميزة في ذاتها ولكنها تدل على إدراك أقل مما كان لدى المتطرفين السابقين من مؤمنين ومجادلين، والذي يحاول اللاحقون جاهدين عن وعي أو غير وعي أن يشغلوا أماكنهم ويحلّوا محلهم.

- ٣ -

من الواضح، أن الفارق بين معنى الإسلام لدى معتنقيه وصورته التي يرسمها له المستشرقون تمس أسس